ألاء لوصيف

الطّفلة الّتي لم تخف

الطبعة الأولى: 1447 هـ / 2026 مـ
isbn: 978 9969 08 189 3
الإيداع القانوني: 02 / 2026

المثقف العربي
للنشر والتوزيع

تَمُرُّ الجَدَّةُ عَلَى غُرْفَةِ حَفِيدِهَا فَتَسْمَعُ صَوْتَ بُكَاء، تَقْتَرِبُ مِنَ الغُرْفَةِ وَتَطْرُقُ البَابَ بِلُطْفٍ وَتُحَاوِلُ مَعْرِفَةَ مَصْدَرِ البُكَاءِ وَسطَ الغُرْفَةِ المُظْلِمَةِ، تَقُولُ بِنَبْرَةٍ مِلْؤُهَا الحَنَانُ: «حَبِيبِي، مَا الخُطْبُ؟ مَا يُبْكِي صَغِيرِي فِي هَذِهِ السَّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ؟ شَارِكْنِي هَمَّكَ لأَحْمِلَهُ عَنْكَ، لا لأَتَقَاسَمَهُ مَعَكَ فَقَطْ».

يَأْتِي صَوْتٌ رَخِيمٌ تَخْنُقُهُ العَبَرَاتُ: «إِنَّهَا أَنَا يَا جَدَّتِي، أَخِي لَمْ يَعُدْ بَعْدُ وَجَدِّي نَائِمٌ وَظَنَنْتُكِ نَائِمَةً أَيْضًا، فَلَمْ أَجِدْ مَكَانًا أَبْكِي فِيهِ بِمُفْرَدِي غَيْرَ غُرْفَةِ أَخِي، لأَنِّي خَشِيتُ أَنْ تَسْمَعَانِي أَبْكِي وَأَنَا فِي غُرْفَتِي، حَتَّى إِذَا سَمِعْتُ صَرِيرَ البَابِ الخَارِجِي كَفَفْتُ دُمُوعِي وَحَمَلْتُ نَفْسِي إِلَى غُرْفَتِي، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَنْتَبِهْ لِوُقُوعِ خُطُوَاتِكِ. لَكِنْ لَا تَقْلَقِي يَا جَدَّتِي، فَلْتَذْهَبِي وَلِتَرْتَاحِي، وَسَأَخْلُدُ إِلَى النَّوْمِ أَيْضًا».

الجَدَّةُ وَهِيَ تُشْعِلُ الأَنْوَارَ وَتَقْتَرِبُ مِنَ الحَفِيدَةِ لِتَجْلِسَ بِجَانِبِهَا عَلَى طَرَفِ السَّرِيرِ: «حَبِيبَتِي "نُور"، تَعْلَمِينَ أَنَّنِي لَنْ أَنَامَ حَتَّى أَطْمَئِنَّ عَلَيْكِ، وَتَعْلَمِينَ أَنَّهُ يُمْكِنُكِ مُشَارَكَتِي كُلَّ مَا يَدُورُ فِي خُلْدِكِ دُونَ وَجَلٍ».

"نُور": «وَكَيْفَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَغِيبَ عَنْهُ لُطْفُكِ؟ إِنَّكِ بِمِثَابَةِ صُنْدُوقِ أَسْرَارٍ لِي يَا جَدَّتِي، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِسِرٍّ هذِهِ المَرَّةَ يَا جَدَّتِي الحَبِيبَةُ، إِنَّهُ هَمٌّ يُفُوقُ كُلَّ الهُمُومِ».

الجَدَّةُ: «خَيْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ يَا صَغِيرَتِي!»

هُنَـا دَخَـلَ الحَفِيـدُ وَلَـمْ تَنْتَبِـهْ لا الجَـدَّةُ وَلا "نُـور" لِصَرِيـرِ البَـابِ، كَانَ يَرْتَعِـدُ مِـنَ البَـرْدِ فَأَسْـرَعَ إِلَـى المِدْفَـأَةِ عَسَـى أَنْ يُحِـسَّ بِأَطْرَافِـهِ مُجَـدَّدًا، وَبَيْنَمَـا هُـوَ وَاقِـفٌ عِنْـدَ المِدْفَـأَةِ فِـي الـرّواقِ، إِذْ بِـهِ يَسْـمَعُ أُخْتَـهُ تَتَحَـدَّثُ بِصَـوْتٍ بَـاكٍ، فَانْتَبَهَتْ كُلُّ حَوَاسِّـهِ، وَخَاصَّةً أُذُنَيْـهِ اللَّتَانِ أَخَذَتَـا تَرْكِيـزًا مَـعَ كُلِّ كَلِمَـةٍ تَقُولُهَـا أُخْتُـهُ الحَبِيبَـةُ دُونَ وعْـيٍ مِنْـهُ، كَيْـفَ لَا وَهُـوَ يُحِبُّهَـا فَـوْقَ الحُـبِّ حُبًّـا، وَمَـا يُؤْذِيهَـا يُؤْذِيـهِ أَضْعَافًـا.

أَخَـذَتْ تُسْـهِبُ فِـي الحَدِيـثِ تَزَامُنًـا مَـعَ مُسْـتَوَى جَرَيَـانِ عَبَرَاتِهَـا: «جَدَّتِـي، إِنَّـهُ لَيَحْزنُنِـي شَـيْءٌ وَاحِـدٌ وَيُدْمِـي قَلْبِـي، وَإِنِّـي أُرِيـدُ البَـوْحَ بِـهِ لِأَرْتَـاحَ، أَحْتَـاجُ حَقًّـا يَـا جَدَّتِـي إِلَـى فِعْـلِ هـذَا، لَيْـسَ البَـوْحُ بِـهِ لَـكِ الآن، كَلَاّ، بَـلِ البَـوْحُ بِـهِ أَمَـامَ النَّـاسِ جَمِيعًـا. هَـلْ يُمْكِنُـكِ إِقْنَـاعُ صَاحِـبِ المِنَصَّـةِ غَـدًا؟ أَرْجُـوكِ يَـا جَدَّتِـي، وَقْتَهَـا فَقَـطْ سَـتَعْرِفِينَ مَـا يُثْقِـلُ كَاهِلِـي، وَقْتَهَـا فَقَـطْ سَـأَرْتَاحُ يَـا جَدَّتِـي، فَلَـمْ يَعُـدْ بِـي وُسْـعٌ لأكْتَـمُ هـذَا الأَمْـرِ، أَحْتَـاجُ حَقًّـا أَنْ يَعْرِفَـهُ كُلُّ النَّـاسِ، كُلُّ مَـنْ هَـبَّ وَدَبَّ غَـدًا فِـي السُّـوقِ، أَحْتَاجُـهُ أَنْ يَسْـمَعَنِي».

تَـرَدَّدَتِ الجَـدَّةُ قَلِيـلًا، لَكِنَّهَـا رَبَّتَـتْ عَلَـى كَتِـفِ حَفِيدَتِهَـا وَطَمْأَنَتْهَـا أَنَّـهُ سَـيَكُونُ لَهَـا مَـا تُرِيـدُ بِـإِذْنِ اللّٰهِ.

فِـي بُقْعَـةٍ مِـنْ بُقَـعِ الأَرْضِ الوَاسِـعَةِ، تُوجَـدُ قَرْيَـةٌ صَغِيـرَةٌ يَعْـرِفُ كُلُّ سُـكَّانِهَا بَعْضَهُـم البَعْـضَ، بَعِيـدَةٌ عَـنْ ضَجِيـجِ المَـدُنِ، بِالـكَادِ يَعْـرِفُ أَحَـدٌ اسْـمَهَا. وُلِـدَتْ فِيهَـا "نُـور" وَتَرَعْرَعَـتْ وَأَحَبَّـتْ كُلَّ رُكْـنٍ فِيهَـا وَتَعَلَّقَـتْ.

كَانَ السُّـوقُ الكَبِيـرُ فِـي قَرْيَـةِ "البُـرْج" نُقْطَـةَ تَـلَاقٍ لِلنَّـاسِ، سَـوَاءٌ مِـنْ أَهْلِهَـا أَوْ مِـنَ المَنَاطِـقِ القَرِيبَـةِ المُجَـاوِرَةِ. وَقَـدِ اعْتَـادَ جَـدُّ "نُـور" التَّـرَدُّدَ إِلَيْـهِ يَوْمِيًّـا قَبْـلَ أَنْ يُقْعِدَهُ المَـرَضُ فِرَاشًـا، فَبَـاتَ حَفِيـدُهُ اليَتِيـمُ الَّـذِي لَـمْ يَشْـعُرْ بِاليُتْـمِ يَوْمًـا ذِرَاعَـهُ الأَيْمَـنَ.

وَقَـدْ كَانَ الجَـدُّ تَاجِـرًا مُخَضْرَمًـا، لَـهُ مَكَانَـةٌ خَاصَّـةٌ بَيْـنَ التُّجَّـارِ؛ عُـرِفَ بِصِدْقِهِ وَأَمَانَتِـهِ وَتَوَاضُعِـهِ، وَهـذَا مَـا كَانَ عَلَيْـهِ حَفِيـدُهُ بَعْـدَ أَنْ حَـلَّ مَكَانَـهُ فِـي الأَيَّـامِ الأَخِيـرَةِ بَعْـدَ أَنْ اشْـتَدَّ عَلَيْـهِ المَـرَضُ.

غَيْـرَ أَنَّ الحَفِيـدَ كَانَ مَحْبُوبًـا حَتَّـى بَيْـنَ الزّبَائـنِ، كَيْـفَ لَا وَهُـوَ يَتَمَتَّـعُ بِحِـسٍّ فُكَاهِـيٍّ لا يَخْلُـو مِنَ اللُّطْفِ وَتَوْزِيعِ الِابْتِسَـامَاتِ. وَبِهـذَا أَصْبَحَتْ كُلُّ العَائِلَـةِ مَحْبُوبَـةً وَمُحْتَرَمَـةً فِـي هـذِهِ القَرْيَـةِ الفَرِيـدَةِ مِـنْ نَوْعِهَـا.

وَقَـدْ كَانَـتْ هُنَـاكَ مِنْصَّـةٌ تَتَوَسَّـطُ السُّـوقَ، يَمْلِكُهَـا جَـارُ "نُـور"، وَعَـادَةً مَـا يُدْفَـعُ لَـهُ مِـنْ قِبَـلِ الشُّـعَرَاءِ الَّذِيـنَ يَتَسَـابَقُونَ لِإِلْقَـاءِ قَصَائِدِهِـمْ أَمَـامَ المَـلَأِ كُلَّ يَـوْمٍ، لَيْـسَ لِغَايَـةٍ مُحَـدَّدَةٍ، بَـلْ لِأَنَّ الشِّـعْرَ يَسْـرِي فِـي عُرُوقِهِـمْ.

فَيَتَهَافَـتُ النَّـاسُ عَلَيْهِـمْ بِالهُتَافَـاتِ وَالثَّنَـاءِ وَكَذَلِـكَ الأَمْـوَالِ، وَيَحْفَظُـونَ أَشْـعَارَهُمْ عَـنْ ظَهْـرِ قَلْـبٍ لِينْقلُوهَـا وَلِتَتَنَاقَلَهَـا الأَلْسُـنُ هُنَـا وَهُنَـاكَ.

وَضَعَتْ "نُور" صَوْبَ عَيْنَيْهَا هَدَفًا وَلَنْ تَبْرَحَ حَتَّى تَبْلُغَ، لِذَلِكَ حِينَ اغْتَسَلَتِ الأَرْضُ بِالضِّيَاءِ، قَفَزَتْ "نُور" مِنْ سَرِيرِهَا وَهِيَ فِي أَوْجِ اسْتِعْدَادِهَا. دَلَفَتِ المَطْبَخَ فَوَجَدَتْ جَدَّتَهَا قَدْ سَبَقَتْهَا، فَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا لَيْسَتِ الوَحِيدَةَ الَّتِي لَمْ تَنَمْ عَمِيقًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، بَلْ حَتَّى جَدَّتَهَا المَسْكِينَةُ الَّتِي ظَلَّ القَلَقُ يَنْهَشُ قَلْبَهَا عَلَى حَفِيدَتِهَا. شَعَرَتْ "نُور" بِوَخْزَةِ تَأْنِيبِ الضَّمِيرِ، خَاصَّةً وَأَنَّ الأَمْرَ لَا يَسْتَدْعِي قَلَقَ جَدَّتِهَا، وَلِسَانُ حَالِهَا يَقُولُ: «إِنَّنِي بِخَيْرٍ حَقًّا يَا جَدَّتِي، الأَمْرُ لَا يَعْنِينِي أَنَا فَقَطْ، بَلْ يَعْنِي الأُمَّةَ كُلَّهَا!».

أَسْرَعَتْ "نُور" إِلَى حُضْنِ جَدَّتِهَا وَأَمْطَرَتْهَا بِالقُبلَاتِ وَبِابْتِسَامَةٍ دَافِئَةٍ تَقُولُ مِنْ خِلَالِهَا أَنَّهَا حَقًّا بِخَيْرٍ وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ يَسْتَدْعِي قَلَقَ جَدَّتِهَا. تَنَاوَلَ أَرْبَعَتُهُمْ فُطُورَ الصَّبَاحِ سَوِيًّا، وَقَدْ عَلِمَ جَدُّهَا وَشَقِيقُهَا بِمَا تَنْوِي فِعْلَهُ، وَكَانَتْ رَدَّةُ فِعْلِهِمَا كَرَدَّةِ فِعْلِ الجَدَّةِ، لَمْ يُعَارِضَا.

لَطَالَمَا كَانَتِ الحِنِّيَّةُ تُحِيطُ أَهْلَ هذَا البَيْتِ؛ يَرْأَفُ كُلُّ وَاحِدٍ بِالآخَرِ وَيُسَانِدُهُ فِي كُلِّ الأَحْوَالِ. وَقَدْ سُرَّتْ "نُور" أَنَّ جَمِيعَهُمْ سَيُرَافِقُونَهَا اليَوْمَ إِلَى السُّوقِ، حَتَّى جَدُّهَا عَلَى كُرْسِيهِ المُتَحَرِّكِ، لِيُنْصِتُوا إِلَى ابْنَتِهِمُ العَزِيزَةِ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِكُلِّ حُبٍّ، وَلِأَنَّهُمْ دَوْمًا مَا يَثِقُونَ بِهَا وَبِقَرَارَاتِهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّ نُضْجَهَا يُفُوقُ سِنَّهَا، فَهِيَ حَتْمًا لَنْ تُقْدِمَ عَلَى خُطْوَةٍ كَهذِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ بِالأَمْرِ الجَلَلِ، إِلَّا إِنْ فَكَّرَتْ مَلِيًّا وَخَطَّطَتْ.

خَرَجُوا مُتَّجِهِينَ إِلَى السُّوقِ، وَهُنَاكَ أَبْدَى التُّجَّارُ وَالزَّبَائِنُ سَعَادَتَهُمْ بِرُؤْيَةِ الجَدِّ وَقَدِ اسْتَعَادَ بَعْضًا مِنْ عَافِيَتِهِ، وَقَدْ كَانَتْ سَعَادَة يَشُوبُهَا الِاسْتِغْرَابُ؛ فَالْعَائِلَةُ عَادَةً لَا تَخْرُجُ جَمِيعهَا وَبِوُجُوهٍ بَدَتْ عَازِمَةً عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مَا.

دَنَا الجَدُّ مِنْ صَاحِبِ المنصَّةِ الَّذِي حَيَّاهُ بِحَرَارَةٍ وَاسْتَقْبَلَ طَلَبَهُ بِصَدْرٍ رَحْبٍ دُونَ أَنْ يَقْبَلَ فِلْسًا وَاحِدًا مِنْهُ. وَبَعْدَ أَنْ أَلْقَى أَوَّلُ شَاعِرٍ شِعْرَهُ، أَمْسَكَ صَاحِبُ المنصَّةِ المِيكْرُوفُونَ وَوَجَّهَ كَلَامَهُ لِلنَّاسِ جَمِيعًا: «سَلَامُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ بُرْجِنَا، سَلَامُ اللَّهِ عَلَى ضُيُوفِنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ. وَأَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فَتَاةً يُقَالُ لَهَا "نُور" تَودُّ أَنْ تُعِيرُوهَا سَمْعَكُمْ لِدَقَائِقَ مَعْدُودَةٍ. تَقُولُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُهِمِّ أَنْ تَعْرِفُوا نَسَبَهَا وَلَا حَتَّى شَخْصَهَا، وَلَكِنَّ مَا يَهُمُّ هُوَ الرِّسَالَةُ الَّتِي تَودُّ إِيصَالَهَا، ثُمَّ سَتُغَادِرُ بِكُلِّ هُدُوءٍ».

عَمَّ الهُدُوءُ المَكَانَ بَعْدَ أَنْ تَجَمَّعَ مُعْظَمُ مَنْ قَصَدَ "البُرْجَ" فِي ذَاكَ اليَوْمِ، مُنْصِتِينَ مُتَسَائِلِينَ عَنْ فَحْوَى هذِهِ الرِّسَالَةِ، غَيْرَ آبِهِينَ بِمَصْدَرِهَا؛ فَهُمْ يُنْصِتُونَ إِلَى صَغِيرِهِمْ كَمَا يَنْصِتُونَ إِلَى كَبِيرِهِمْ بِكُلِّ اهْتِمَامٍ، هذَا مَا تَنُصُّ عَلَيْهِ أَخْلَاقُهُمْ.

شَكَرَتْ "نُور" صَاحِبَ المنصَّةِ الَّذِي نَاوَلَهَا المِيكْرُوفُونَ، وَسَلَّمَتْ عَلَى كُلِّ الحَاضِرِينَ، وَأَلْقَتْ نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ شَجَّعُوهَا بِنَظَرَاتِهِمُ المُؤَازِرَةِ لِتُكْمِلَ مَا بَدَأَتْهُ.

اسْتَجْمَعَتْ قُوَاهَا، وَنَظَرَتْ لِلْجَمْعِ المُتَجَمْهِرِ أَمَامَهَا، وَأَخَذَتْ تَقُولُ بِكُلِّ رِقَّةٍ وَثَبَاتٍ فِي الآنِ نَفْسِهِ: «نَحْنُ لَسْنَا فِي لُعْبَةٍ هُنَا يَا إِخْوَانِي، إِنَّنَا فِي اخْتِبَارٍ، وَإِنَّهُ لَيَحْزُنُنِي أَنْ تُحِيطَ الغَفْلَةُ إِخْوَانِي...»

وَأَبْدَأ بِتَذْكِيرِ نَفْسِيَ الَّتِي تُرِيدُ اتِّبَاعَ الهَوَى: يَا نَفْسُ، تُوبِي، فَالمَوْتُ لَا يَعْرِفُ عُمْرًا. المَوْتُ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ.

إِنْ كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَلْعَبَ، فَلْنَتَخَيَّلْ أَنْفُسَنَا فِي لُعْبَةٍ، حَسَنًا؟ الشَّاشَةُ أَمَامَنَا، وَكُلُّ تَرْكِيزِنَا عَلَى مَا يَجْرِي دَاخِلَهَا، وَلَوْحُ التَّحَكُّمِ بِأَيْدِينَا؛ هَذَا يَبْنِي بَيْتًا، بَلْ قَصْرًا، وَذَاكَ قُبِلَ فِي وَظِيفَةٍ لَمْ يَكُنْ يَحْلُمُ بِهَا حَتَّى. هذِهِ تَزَوَّجَتْ فَارِسَ أَحْلَامِهَا، وَتِلْكَ تَخَرَّجَتْ مِنْ أَعْرَقِ جَامِعَةٍ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَتَاعِ هذِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ مَاذَا بَعْد؟ أَتَدْرُونَ؟ أُحِبُّ هذَا السُّؤَالَ كَثِيرًا: «مَاذَا بَعْد؟»؛ دَوْمًا مَا يُذَكِّرُنِي بِضَآلَةِ هذِهِ الدُّنْيَا مَهْمَا بَلَغَتْ إِنْجَازَاتُنَا فِيهَا. بَلَغْتَ مُرَادَكَ، وَلَكِنْ مَاذَا بَعْد؟ سَتَمُوتُ وَسَتَتْرُكُ كُلَّ هذَا خَلْفَكَ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

لِذَا، إِنْ لَمْ يَكُنْ مَا أَنْجَزْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيَا أَسَفَاهُ عَلَى إِنْجَازٍ قَدْ ذَهَبَ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ. جَرِيمَةٌ فِي حَقِّ أَنْفُسِنَا أَنْ نَنْسَى الهَدَفَ الأَسْمَى لِوُجُودِنَا فِي هذِهِ الحَيَاةِ، جَرِيمَةٌ فِي حَقِّ أَنْفُسِنَا أَنْ نَظُنَّ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الشَّاشَةِ الَّتِي أَمَامَنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّهُ، وَبِمُجَرَّدِ ظُهُورِ: " The game is over"

تَرَى حَوْلَكَ مَا هُوَ أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ مُجَرَّدِ شَاشَةٍ وَ لَوْحِ تَحَكُّمٍ.

حِينَ يُدْرِكُنَا المَوْتُ، وَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَمُدْرِكُ كُلّ وَاحِدٍ مِنَّا عَاجِلًا أَمْ آجِلًا، طَالَ الزَّمَنُ أَوْ قَصُرَ، وَقْتَهَا فَقَطْ لَا أُرِيدُ أَيًّا مِنَّا أَنْ يَتَحَسَّرَ عَلَى مَا فَرَّطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ.

The Game Is Over

لِهـذَا أَنَـا هُنَـا اليَـوْمَ، أَمَـةٌ لِلَّـهِ، فَقِيـرَةٌ إِلَيْـهِ، لَا أَرْجُـو سِـوَاهُ. أُرِيـدُ تَذْكِيرَكُـمْ بِالعَمَـلِ الجَـادِّ فِـي جَمْـعِ الـزَّادِ، وَإِنَّ خَيْـرَ الـزَّادِ التَّقْـوَى.

إِخْوَانِـي، بِغَـضِّ النَّظَـرِ عَـنْ أَعْمَارِكُـمْ وَظُرُوفِكُـمْ، فَلْتَعْمَلُـوا قَـدْرَ المُسْـتَطَاعِ، وَإِنَّ اللَّـهَ لَا يُكَلِّـفُ نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا. لَا تُؤَجِّلُـوا، لَا تَتَكَاسَلُوا، لَا تَيْأَسُـوا، لَا تَتَهَاوَنُـوا، وَلَا تَتَّبِعُـوا خُطُـوَاتِ الشَّـيْطَانِ الَّـذِي يَسْـتَصْغِرُ حَجْـمَ مَعْصِيَـةٍ مَـا، فَتَكُـون الخُطْـوَة الأُولَـى إِلَـى مَـا هُـوَ أَكْبَـرُ بِكَثِيـرٍ؛ أَلَا لَعْنَـةُ اللَّـهِ عَلَيْـهِ إِلَـى يَـوْمِ الدِّيـنِ.

إِخْوَانِـي، إِنَّ عَدُوَّنَـا هُـوَ الشَّـيْطَانُ عَلَيْـهِ اللَّعْنَـةُ، وَأَمَّـا نَحْـنُ فَإِخْـوَانٌ، يُحِـبُّ كُلُّ وَاحِـدٍ مِنَّـا الخَيْـرَ لِلْآخَـرِ، نَتَنَاصَحُ وَنَتَعَـاوَنُ عَلَـى التَّقْـوَى، نَأْخُـذُ بِيَـدِ كُلِّ إِنْسَـانٍ إِلَـى الحَـقِّ، وَلَا نُحَاسِـبُ أَحَـدًا، فَاللَّـهُ يُحَاسِـبُنَا، وَلَا يَعْلُـو بَعْضُنَـا عَلَـى بَعْـضٍ، فَاللَّـهُ أَعْلَـمُ بِمَـا فِـي نُفُوسِـنَا.

نَتَرَاحَـمُ، وَلَا نَسْـتَثْنِي أَحَـدًا مِـنْ رَحْمَـةِ اللَّـهِ؛ فَرَحْمَتُـهُ وَسِـعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ. نَعُـودُ إِلَيْـهِ مَهْمَـا بَلَغَـتْ ذُنُوبُنَـا عَنَـانَ السَّـمَاءِ.

طَالَمَـا نَحْـنُ عَلَـى قَيْـدِ الحَيَـاةِ، فَلْنُجَاهِـدْ، وَلَا نَتَوَقَّـفْ عَـنْ جِهَـادِ أَنْفُسِـنَا حَتَّـى يَتَوَفَّانَـا اللَّـهُ إِلَيْـهِ، وَلْنَكُـنْ بَـذْرَةَ خَيْـرٍ أَيْنَمَـا حَلَلْنَـا.

لَـمْ يَفُـتِ الأَوَانُ بَعْـدُ لِلْإِصْـلَاحِ يَـا إِخْوَانِـي، بِإِمْكَانِ كُلِّ وَاحِـدٍ مِنَّـا أَنْ يَبْـدَأَ بِدَايَـةً جَدِيـدَةً فِيمَـا يُرْضِـي الإِلَـهَ، وَيَعْـزِمَ عَلَـى أَنْ يَكُـونَ مُؤْمِنًـا قَوِيًّـا يُحِبُّـهُ المَوْلَـى عَـزَّ وَجَـلَّ.

من
أخلاقنا
ننصت
إلى كبارنا
نتناصح
لانحتقر أحدا
و
لا نحكم على أحد
نتعاون على البر
و التقوى
لانستصغر المعصية
أبدا
نصاما
كما لانحتقر المعروف

هـذَا مَـا كَانَ يُثْقِـلُ كَاهِلِـي، وَأَرْجُـو أَنْ تَعْذِرُونِـي إِنْ أَطَلْـتُ الحَدِيـثَ، وَلَكِـنْ أَرْجُوكُـمْ: لَا تَنْسَـوُا العَمَـلَ لِأُخْرَاكُـمْ، أَرْجُوكُـمْ لَا تَسْـتَمِعُوا لِلْمَلْعُـونِ، أَرْجُوكُـمْ لَا تُـؤْذُوا أَنْفُسَـكُمْ. لَا أُرِيـدُ أَنْ أَفْقِـدَ أَيًّـا مِنْكُـمْ فِـي الجَنَّـةِ يَـوْمَ نَلْقَـى اللَّـهَ الرَّحِيـمَ.

أَرْجُوكُـمْ يَـا إِخْوَانِـي، مَـا هِـيَ إِلَّا أَيَّـامٌ قَلَائِـلُ وَنَمْضِـي؛ فَتَمَسَّـكُوا بِحَبْـلِ اللَّـهِ وَلَا تَفَرَّقُـوا.

ثُـمَّ أَجْهَشَـتْ بِالْبُـكَاءِ، وَلَكِنَّهَـا حَاوَلَـتِ التَّمَاسُـكَ حَتَّـى آخِـرِ لَحْظَـةٍ. كَفْكَفَتْ دُمُوعَهَـا، وَوَاصَلَـتْ حَدِيثَهَـا بِصَـوْتٍ تَخْنُقُـهُ الْعَبَـرَاتُ بَعْـدَ أَنْ سَـالَتْ دُمُـوعُ كَثِيـرٍ مِـنَ الْحَاضِرِيـنَ:

«لَا أُرِيـدُ أَنْ يَمَسَّـنَا الْعَـذَابُ يَـا إِخْوَانِـي، فَلْنَعْبُـدِ اللَّـهَ حَـقَّ عِبَـادَةٍ، وَلَا نُشْـرِكَ بِـهِ شَـيْئًا، فَلْنَـرْجُ مَـا عِنْـدَهُ مِـنْ نَعِيـمٍ، وَلْتَرْتَعِـدْ فَرَائِسُـنَا حِيـنَ تَتَذَكَّـرُ الْعَـذَابَ الْأَلِيـمَ. دَعُونَـا لَا نَكُـنْ مِثْـلَ الَّذِيـنَ سَـبَقُونَا، وَالَّذِيـنَ مَـا قَـدَرُوا اللَّـهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ. إِنَّ رَبِّـيَ اللَّطِيـفَ لَا يَظْلِـمُ مِثْقَـالَ ذَرَّةٍ، لَا تَقْلَقُـوا، فَقَـطْ فَلْنُحَـاوِلْ أَنْ نَثْبُـتَ مَـا اسْـتَطَعْنَا، وَلْنُسَـاعِدْ بَعْضَنَـا بَعْضًـا بَـدَلَ أَنْ يَفْتِـنَ بَعْضُنَـا بَعْضًـا. وَلْنُـرَدِّدْ دَوْمًـا: لَبَّيْـكَ، إِنَّ الْعَيْـشَ عَيْـشُ الْآخِـرَةِ. دَعُونَـا نُحَـاوِلْ مَـا اسْـتَطَعْنَا، أَرْجُوكُـمْ... أَرْجُوكُـــ...».

اِنْهَـارَتْ «نُـورٌ» وَلَـمْ تُكْمِـلْ كَلِمَتَهَـا، فَهَرَعَـتْ إِلَيْهَـا جَدَّتُهَـا وَأَخَذَتْهَـا فِي حِضْنِهَـا، وَاعْتَـذَرَتْ مِـنَ الْجُمْهُـورِ، وَبِإِيمَـاءَةٍ مِنْهَـا لِصَاحِـبِ الْمنصَّـةِ، مَسَـحَ دَمْعَـةً كَانَـتْ قَـدْ هَرَبَـتْ مِـنْ إِحْـدَى عَيْنَيْـهِ، وَأَخَـذَ الْمِيكْرُوفُـونَ، وَشَـكَرَ الْجَمِيعَ عَلَى حُسْـنِ الِاسْـتِمَاعِ، آذِنًا لَهُمْ بِالرَّحِيلِ فِي حَالِ سَبِيلِهِمْ.

تَفَـرَّقَ الْجَمْـعُ بِهُـدُوءٍ، وَكُلُّ وَاحِـدٍ مِنْهُـمْ أَخَـذَ رَأْسَـهُ يَعْصِـفُ بِأَفْـكَارٍ أَيْقَظَتْهَـا حِكْمَـةُ وَوَعْـظُ هَـذِهِ الصَّبِيَّـةِ. رَغْـمَ أَنَّهُـمْ يُدْرِكُـونَ حَقِيقَـةَ كُلِّ مَـا تَلَفَّظَـتْ بِـهِ، بَيْـدَ أَنَّهُـمْ شَـعَرُوا بِالتَّقْصِيـرِ حَقًّـا، وَبِأَنَّهُـمْ كَانُـوا يَتَغَافَلُـونَ وَيَمْضُـونَ فِـي حَيَاتِهِـمْ وَكَأَنَّهُـمْ سَيَعِيشُـونَ أَبَـدًا.

حَمَلَـتِ الْجَـدَّةُ حَفِيدَتَهَـا بَيْـنَ ذِرَاعَيْهَـا وَهِـيَ تَتَمْتِـمُ لَهَـا: «كَـمْ أَنَـا فَخُـورَةٌ بِـكِ يَـا حَبِيبَتِـي يَـا نُـورُ»، وَعَـادُوا جَمِيعًـا إِلَـى بَيْتِهِـمْ فِـي هُـدُوءٍ وَسَـكِينَةٍ.

بَعْـدَ أَنْ دَلَفُوا بَيْتَهُـمُ الدَّافِـئَ، احْتَضَنُـوا «نُـورًا» الَّتِـي شَـعَرَتْ بِرَاحَـةٍ كَبِيـرَةٍ أَخِيـرًا، وَبِحِمْـلٍ قَـدْ أُزِيـحَ مِـنْ عَلَـى قَلْبِهَـا بَعْـدَ أَنْ أَفْرَغَـتْ مَـا فِـي جُعْبَتِهَـا، وَقَـدِ ارْتَـاحَ وَقْتَهَـا كُلُّ أَهْـلِ الـدَّارِ وَأَهْـلُ «الْبُـرْجِ» وَحَتَّـى أَهْـلُ الْمَنَاطِـقِ الْمُجَـاوِرَةِ بَعْـدَ أَنْ تَنَاقَـلَ الصَّغِيـرُ وَالْكَبِيـرُ كَلَامَهَـا.

وَمُنْـذُ تِلْـكَ اللَّحْظَـةِ، أَصْبَـحَ كُلُّ مُسْـلِمٍ يَبْـذُلُ كُلَّ مَـا فِـي وُسْـعِهِ، وَلَا يَسْـتَصْغِرُ مِـنَ الْمَعْـرُوفِ شَـيْئًا، وَكُلَّمَـا تَنَاسَـى ذَكَّـرَ نَفْسَـهُ بِالْغَايَـةِ الَّتِـي خُلِـقَ مِـنْ أَجْلِهَـا، فَتَجِـدُهُ يَحْمِـلُ الدُّنْيَـا فِـي يَـدِهِ لَا فِـي قَلْبِـهِ، شَـاكِرًا لِأَنْعُـمِ اللَّـهِ، فَـلَا وَقْـتَ لَدَيْـهِ لِسَـخَطٍ وَلَا لِاكْتِئَـابٍ.

لَـمْ تَعُـدْ تُشْـغِلُهُ الدُّنْيَـا بَعْـدَ الْآنِ، فَهُـوَ مَشْـغُولٌ بِجَمْـعِ الـزَّادِ وَالسَّـعْيِ فِـي سَـبِيلِ اللَّـهِ. وَبِهَـذَا لَـمْ يَعُـدْ أَحَـدٌ يَحْتَقِـرُ النَّاصِـحَ مَهْمَـا كَانَ حَالُـهُ، بَـلْ وَلَـمْ يَعُـدْ أَحَـدٌ يَحْتَقِـرُ أَحَـدًا أَوْ يَحْكُـمُ عَلَيْـهِ بِالْجَنَّـةِ أَوِ النَّـارِ؛ فَهَـذِهِ لَيْسَـتْ وَظِيفَتَهُـمْ.

اِنْتَشَـرَ الْـوُدُّ وَالتَّرَاحُـمُ بَيْنَهُـمْ؛ فَهَـذِهِ تَدْعُـو لِتِلْـكَ بِالْهِدَايَـةِ وَالصَّـلَاحِ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهَـا كَأَنَّهَـا أُخْتٌ مِنْ نَفْسِ الرَّحِمِ، غَيْـرَ أَنَّهَـا أُخْتٌ مِنْ رَحِمٍ آخَـرَ. وَهَـذَا يَنْهَـى ذَاكَ عَـنْ مُنْكَـرٍ بِـكُلِّ لُطْفٍ وَمَحَبَّـةٍ وَتَشْـجِيعٍ لِفِعْـلِ الْخَيْـرِ.

وَظَلَّـتْ جَدَّتُهَـا تُـرَدِّدُ قَائِلَـةً: «وَكَـمْ مِـنْ أَمَـةٍ اسْـتَيْقَظَتْ فَأَيْقَـظَ اللَّـهُ بِهَـا أُمَّـةً. إِنَّنِـي فَخُـورَةٌ بِـكِ يَـا حَفِيدَتِـي الْغَالِيَـةُ، كَوْنَـكِ لَـمْ تَحْتَقِـرِي مَـا يُمْكِنُـكِ فِعْلُـهُ حَتَّـى وَأَنْـتِ بِهَـذَا الْعُمْـرِ وَالْمَعْرِفَـةِ. وَهَـذَا وَاجِـبُ كُلِّ مُسْلِمٍ: أَنْ يَسْـعَى وَيَتْـرُكَ النَّتِيجَـةَ عَلَـى اللَّـهِ، وَأَلَّا يَقُـولَ: مَـاذَا يُمْكِنُنِـي أَنْ أُغَيِّـرَ وَأَنَـا مُجَـرَّدُ أَنَـا؟».
وَبِهَـذَا أَنَـارَتْ «نُـورٌ» بَصَائِـرَ كَثِيـرٍ مِـنَ النَّـاسِ، وَحَاوَلَـتِ الْعَمَـلَ بِنَصِيحَتِهَـا قَـدْرَ الْمُسْـتَطَاعِ وَالثَّبَـاتَ عَلَـى الْحَـقِّ هِـيَ الْأُخْـرَى.